هوامش

الظروف الاقتصادية الصعبة والبطالة التي يعيشها الشباب في أفريقيا الوسطى دفعت الكثير منهم نحو الاقتصاد السري، وضمنه مهنة تجميل الأظافر التي يُقبِل عليها الرجال

عمل دوبونور مزيّنا متجولا، وما لبث ان اسس محله عام 2019 (باربرا دوبو/ فرانس برس)

تجميل الأظافر

مردود مالي يغري رجال بانغي

باختصار

معدل البطالة يبلغ 24,2% في هذا البلد الذي يعاني حرباً أهلية منذ عام 2013، وهو ثاني أقل البلدان نمواً في العالم

■■■

يتفاوت مدخول دوبونور، إذ قد يقتصر على ألفي فرنك في أيام العمل القليل، ويتجاوز 20 ألفاً في الإجازات

■■■

الناس في أفريقيا الوسطى يختارون طوعاً القطاع غير الرسمي، نظراً لكونه طريقة لتعزيز دخلهم، إذ لا يدفعون ضرائب

بحركة دقيقة، يصبغ دوبونور كولي أظافر زبونته الشابة في محله الصغير المليء بالغبار، إذ إن تجميل أظافر اليدين والقدمين الذي ينظر إليه في الغرب على أنه اختصاص نسائي، مهنة للرجال أيضاً في بانغي، عاصمة أفريقيا الوسطى.

ينكبّ دوبونور (27 عاماً) على الاعتناء بيد مدتها إليه شابة درجت على ارتياد محله في منطقة نغاراغبا، عند سفح تلال المدينة. يركز كل انتباهه، ويضع الصباغ بدقة بالفرشاة، ثم ينظر إلى الأعلى مبتسماً، بعدما أنجز مهمة رسم عقدة على الكيراتين. تعرف نساء كثيرات هذا الشاب في «بانغي لا كوكيت»، أي «بانغي المغناج»، وهي صفة أطلقت منذ زمن بعيد على عاصمة أفريقيا الوسطى، بسبب حلاوة الحياة التي كانت تتميز بها ذات يوم. وتقول بينينا (23 عاماً)، وهي في كامل تألقها، إنه «يضع الرموش والأظافر الاصطناعية ببراعة كبيرة». وتضيف: «في كل مرة، يسألني الجميع عمّن تولى تجميلي. أحب المجيء إلى محل دوبونور، إذ أشعر بعد ذلك بأنني جميلة». لكنّ الأخير لم يختر هذه المهنة بدافع الشغف بها. ويقول متنهداً: «لا يوجد عمل». ويلاحظ أن «السبب الرئيسي لإقبال الرجال على احتراف تجميل الأظافر مالي». فمعدل البطالة يبلغ 24,2 في المائة في هذا البلد الذي يعاني حرباً أهلية منذ عام 2013، ويُعتبر وفقاً للأمم المتحدة ثاني أقل البلدان نمواً في العالم، ويضطر كثر من أبنائه تالياً إلى تدبّر أمورهم لكسب لقمة العيش، ويصبحون جزءاً من الاقتصاد غير الرسمي. يجلس دوبونور على كرسيه مرتدياً سروال جينز وقميصاً يحمل صورة الملاكم محمد علي كلاي، وسط جدران تنتشر عليها ملصقات لنجوم الموسيقى ولاعبي كرة القدم الأميركيين، على وقع موسيقى الراب الأميركية، فيما تبرّد مروحة إلى حدّ ما الجو الحار والرطب في المحل. ويروي الشاب أنه ترك المدرسة عندما كان في الخامسة عشرة، «بسبب توقف برنامج التمويل الذي كانت توفره إحدى المنظمات غير الحكومية». فمعدل النفاذ إلى التعليم لا يزال من الأدنى عالمياً في هذا البلد الذي يعاني أزمة دائمة. وكشف «صندوق الأمم المتحدة للسكان»، عام 2016، أن عدد الأولاد خارج النظام المدرسي يبلغ نحو 240 ألفاً، وأن معدل الالتحاق بالمدارس الثانوية لا يتجاوز 22 في المائة.

في ظلّ هذا الواقع، يحاول كثر من مواطني أفريقيا الوسطى تدبّر أمورهم. فبعدما اضطر دوبونور إلى ترك مقاعد الدراسة، انتقل إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية، الواقعة على الضفة الأخرى من نهر زونغو. ويقول: «لقد تعلمت هناك في أربعة أشهر تجميل الأظافر». ولدى عودته إلى بانغي، عمل مزيّناً متجولاً، وما لبث أن أسس محله عام 2019. ويقول: «لقد وجدت موقعاً أدفع بدل إيجاره 30 ألف فرنك أفريقي شهرياً (53 دولاراً أميركياً)، وبنيت كوخي عليه».

ويذهب دوبونور شهرياً لتوفير مستلزمات عمله إلى «ب ك 5»، وهو حي المسلمين في بانغي، ويعتبر الرئة الاقتصادية للعاصمة. ويقول: «هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنني أن أجد فيه بأسعار منخفضة ما أحتاج إليه من منتجات، كالأظافر الاصطناعية أو الصمغ أو مزيل طلاء الأظافر».

ويتفاوت مدخول دوبونور يومياً، إذ قد يقتصر على ألفي فرنك في أيام العمل القليل، ويتجاوز 20 ألفاً في أيام الإجازات أو عطل نهاية الأسبوع، أي ما بين 3,5 دولارات و35,3 دولاراً. ويبلغ الحد الأدنى للأجور الشهرية في القطاع الرسمي 42,3 دولاراً، وفقاً للبنك الدولي. ويوضح الباحث المتخصص في الاقتصاد غير الرسمي في «جامعة بانغي» ميدار غواي، أن «الناس هنا يختارون طوعاً القطاع غير الرسمي، نظراً إلى كونه طريقة لتعزيز دخلهم، إذ لا يدفعون ضرائب».

ويعمل نحو 80 في المائة من الشباب، الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و29 عاماً، في الاقتصاد السري، في مهن بينها سائق دراجة نارية للأجرة وبائع بطاقات هاتف وتاجر أدوية وصانع أثاث وعامل بناء. في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، كانت الدولة أكبر جهة توظيف. لكن عقوداً من سوء الإدارة وحقب انعدام الاستقرار والعنف المتكررة جعلت من الصعب الحصول على وظائف في القطاع العام.

اليوم، يسير عمل دوبونور الصغير جيداً، وهو لجأ إلى تدريب عدد من الأشخاص لتلبية الطلب المتزايد، من بينهم شقيقه الأصغر إيمانويل، البالغ 25 عاماً. ويقول إيمانويل الذي يحلم بأن يصبح ممرضاً: «أعمل في مجال تجميل الأظافر حتى الحادية عشرة صباحاً في صالون أخي، بهدف تأمين مصاريف دراستي، وأنا سائق دراجة نارية للأجرة في فترة ما بعد الظهر».

(فرنس برس)

وأخيراً

محمود معروف في فلسطين

معن البياري

أجدني في عسرٍ كثير، وأنا أهمّ في كتابة السطور التالية. لا تنقادُ الكلمات كما أريد. أراني أراوغ، وأنا أحاول أن أقع على مفردات البداية، ذلك أن ثمّة أسىً مالحا يُعرقل الوصول إلى الجملة الأولى، فالكتاب الذي تختصّ به هذه المقالة «حيث لا نسيان» (مكتبة كل شيء، حيفا، 2021)، دفع به كاتبُه محمود معروف، إلى النشر، ثم انتظر، بعدّ الأيام والساعات، صدوره ليفرَح به، غير أن كلمةً للقدر أرادت أمرا آخر. أن يلقى الصديق العزيز وجه ربّ العزة، قبل عام بالضبط، في مثل هذا اليوم (3 سبتمبر/ أيلول)، قبل أن يصدُر الكتاب، فتنضافُ إليه تقدمةٌ موجزةٌ لزوجة الصحافي والكاتب الأريب، أختنا بحريّة عدوان. ذلكم سببٌ أول للأسى الذي يربك استهلال حديثٍ عن كتابٍ شائقٍ، مؤنسٍ رائق. أما السبب الثاني فأنه كتاب تجوالٍ حرٍّ في بعض فلسطين، دوّنه محمود بتلقائيةٍ، زاوج فيه اليوميّ بالشخصيّ بالعام، وحضرت في الكتابة خبرة الصحافي المحترف، حيث التكثيف، والبعدُ عن تأنّق العبارة المتزيّد، حيث الحرص على تيسير ما يلزم من تعريفٍ غير مُسهب، بالأماكن والمعالم. لا تمرّ، أنت القارئ المتجوّل مع الكاتب في حيفا ويافا وصفد والناصرة ودير القاسي وعكّا وترشيحا ومجد الكروم وقيسارية وجبع وعين حوض و .. ، على مطاعم ومساجد وكنائس وحارات وميادين ومقاهٍ في هذه المدن والبلدات والقرى، من دون أن يبسُط لك رفيقك في هذا الطواف، محمود معروف، وبتباسطٍ فيه حميمية ظاهرة، ما يلزم من تفاصيل موجزة ودقيقة من جغرافيا هذه الفضاءات وتاريخها. الأمر نفسُه تطالعه عن ناسٍ كثيرين، سيعرّفك بهم الكتاب، من أصدقاء محمود ومعارفه وزملائه، بل وأيضا ممن صادفهم وتحادث معهم، ستعرف أيضا عن أسرهم، وعائلاتهم في فلسطين وبعض امتداداتها في الشتات.

كتابٌ في مائتي صفحة من الحجم الصغير، لكنه يحتشد بالغزير عن بعض فلسطين، ناسا وأرضا وكفاحا. وبذلك، لا تزيد في القول هنا إن محمود معروف، في كتابه الشفيف هذا، يعلّم من يريد أن يتعلّم كيف تنكتب نصوص ما يسمّونه أدب الرحلات، سرود التجوال والسفر ومراودة الأمكنة. ويثبت زميلنا العتيق هشاشة تلك الأزعومة، المتعجّلة والذائعة، عن أثر سيئ أحدثته لغة الصحافة على لغة أهل الأدب ممن يزاولونها. ثمّة أدبٌ في نصوص صديقنا الباقي، وثمّة صحافة متقدّمة، ثمّة حرفيةٌ في علو الكتابة عن مشاعر الذات الموصولة بالتعبير عن الأحاسيس الشخصية في مناجاة الأمكنة وتفاصيلها، وفي تداعيات الذاكرة وإحالاتها، وفي مونتاجات الانتقالات المتقنة من تفصيل في ماضٍ إلى آخر في راهنٍ ماثل. وفي الأثناء، ثمّة اقتصادٌ في العبارة، وحياةٌ في اللغة المنسرحة بعفوية العارف بالكتابة فنا وإبداعا.

يودّعنا محمود معروف، في آخر صفحات كتابه الذي صار «وصية»، على ما أفضى ربعي المدهون، مستحضرا أحفاده (توفي عن 67 عاما)، وقد افترض أن ما كتبه كان حديثا منه إليهم عن رحلاته إلى الوطن، «رحلات غنية بالتاريخ والحب والجمال والدفء والأمان»، كما وصفها محقّا «ألقي على كاهلهم، وهم الأطفال، أمانة مواصلة الحلم ليصبح حقيقة». والكتاب مُهدى، في صفحته الأولى، «إلى أحفادي، جوانا ويوسف وياسمين وأليزا وفادي .. هذا وطنكم ... لا تنسوه». ولم يتزيّد يحيى يخلف في مقدمته لمّا وصف «حيث لا نسيان» بأنه «وثيقة اجتماعية وثقافية»، من فرط ما أغنى به محمود ما كان يتداعى إلى قلمه من خواطر مشحونة بمشاعر الألفة مع الناس والأماكن، من معلوماتٍ بالغة الفائدة، عن أعداد سكان الناصرة، وعن كنيسة البشارة فيها، وعن تاريخ مسجد حسن بيك في يافا، وعن آخر خطبة لعز الدين القسام في مسجد الجرينة في حيفا، وعن سور عكا، وعن ترشيحا وجغرافيتها، أمثلة لا غير. أما دير القاسي، بلدة محمود التي هجّرت منها أسرته إلى لبنان في عام النكبة، فقد فاضت الكتابة عنها بوفيرٍ من التاريخي والذاتي والاجتماعي. وفي الغضون، كانت ذكريات تتوالى إلى مدارك صديقنا، فيروي، ويقول عن شعوره باختناقٍ وغصّة أليمة، حين التقت عيناه بعيني أحد المستوطنين هناك، وهو في داخل السيارة. وكان لقاؤه في ترشيحا بالحاجّة أم خالد خرمة، الباقية الوحيدة من دير القاسي في الوطن، مشهدا ممتلئا بالإيحاءات والمعاني.. «أشعة الشمس تمنح الأرض الخضراء، جبالا وتلالا ووديانا، مسحة جمال تنعش القلب» .. هذا في صفد. وفي غير صفد، في كل سطور كتاب محمود معروف مباهج كانت يبعثُها حبٌّ بلا حدود لفلسطين، ولكن مقادير باهظة من أسىً ظلت عصيةً على أن تغادرك وأنت تقرأ. رحمك الله أبا نبيل.

> كتابٌ في مائتي صفحة لكنه يحتشد بالغزير عن بعض فلسطين، ناساً وأرضاً وكفاحاً

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**